الشعراء المجددون

إذا كان البارودي قد بدأ حركة الشعر العربي الحديث بموقف يبتعد فيه عن السائد ولكنه يتخذ من شعرنا العربي القديم مقياساً يحتذيه في الأغراض والمعاني والأساليب والصور واللغة، ولكنه لا يلغي شخصيته، ولا ينأى عن بيئته وعصره. وقد مهد هذا الاتجاه السبيل للآخرين من بعده في المضي بطريقهم الجديدة فتمثلوا حياتهم الجديدة وما اكتنفها من أحداث وتحولات. فمثلوا الاتجاه اللاحق. ومن أهم هؤلاء الشعراء: أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبري وأحمد محرم وأحمد الكاشف والرصافي والزهاوي والجواهري والشبيبي والكاظمي والنجفي وحافظ جميل وغيرهم.

وهؤلاء وقفوا على الأطلال والرسوم وشبهوا الكرم بالمطر وعارضوا القصائد القديمة المشهورة، ورثوا ووصفوا ومدحوا بالمعاني القديمة وللنظم بثّوا في ذلك كله مشاعرهم ولونوا به عواطفهم وظهرت شخصياتهم فظهر معها ملامح عصرهم وبيئاتهم. محملين الموضوعات القديمة مفاهيم جديدة في السياسة والاجتماع والعلم والأخلاق والتربية.

ولعل للاتصال مع الغرب وتعميم الثقافة دوراً في ذلك. ولذلك راح الشعراء يدلون بدلائهم في قصائدهم متمثلين العصر وأحداثه. وقد اتسعت دائرة الشعر للموضوعات كافة، الاجتماعية والسياسية والدينية والخلقية.

وعلى الرغم من اعتمادهم الأساليب القديمة إلا أنهم طوروا الشعر بعض تلك الأساليب، وقد ساعدهم ثقافتهم الأدبية والشعرية. فمن ناحية شكل حاولوا تنويع قوافيهم لتتسق مع موضوعاتهم الجديدة ومعانيهم المبتكرة، وهذا ما نلمسه في شعر: حافظ إبراهيم وعزيز فهمي وعبد الغني حسن والكاشف والزهاوي والرصافي والجواهري وحافظ جميل ومنهم

وهذه ناحية مضمونة فقد اتخذ هؤلاء الشعراء القصصة الشعرية وسيلة للتعبير الشعري. ومن المعلوم أن القصصة الشعرية موجودة في أدبنا القديم وهي جلية في شعر عمر بن أبي ربيعة وأبي نواس وغيرهما ولكنها صارت تعالج موضوعات اجتماعية وتطور خلجات النفس الإنسانية. وقد تجلى ذلك في شعر: أحمد شوقي وأحمد محرم وعزيز فهمي وحافظ إبراهيم والرصافي والزهاوي وخيري الهنداوي وغيرهم.

وفي مجال الشعر الملحمي نظم أحمد شوقي مطولته (دول العرب وعظماء الإسلام) ونظم أحمد محرم (الإلياذة الإسلامية) وكتب حافظ إبراهيم (عمريته المشهورة) وكتب محمد عبد المطلب (علويته) وكتب عمر أبو ريشة (خالديته).

ووضح خليل اليازجي أول مسرحية شعرية هي مسرحية (المروءة والوفاء) في عام ١٨٧٦. وتبعه ثم تبعها مسرحية كثيرة وهي: كليوباترا ومجنون ليلى و(الناصر) و(عنترة) وغيرها لأحمد شوقي، ولعزيز أباظة (قيس وليلى) و(الأسوار) و(سميراميس) لعمر أبي ريشة، ونظم خالد الشواف مسرحية (أستاذهم) وهكذا قدم هؤلاء الشعراء صوراً جديدة لم تكن تدور بخلد أساتذهم ولا سيما في مصر والعراق وسوريا. ويبدو أن خير من يمثل هذا الاتجاه الشاعران حافظ إبراهيم ومعروف عبد الغني الرصافي.

حافظ والرصافي:

ولد حافظ إبراهيم في عام ١٨٧٠ في أسرة مصرية فقيرة. وولد الرصافي بعده بخمس سنوات في العام ١٨٧٥ في بيت فقير بمحلة الفراغول بالرصافة ببغداد. وفي هذا فانهما يشتركان بالفقر والاتصال مع الشعب منذ البداية، وخاصة في المقاهي، التي تجمع الكثيرين ممن يعانون الفقر والبؤس.

وعن شخصية حافظ وشعره يقول طه حسين (كان حافظ أقل حظاً من المهارة، وأيسرهم نصيباً من المداورة وأعظمهم قسطاً من الصراحة). ولا يختلف الرصافي عنه هذا في شيء، إذا قيست مهارته الشعرية بشوقي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكنه يتفوق على حافظ في الصراحة والبعد عن المداورة. إذ إن حافظاً قد داري المستعمرين والحكام في بعض الأحيان، لأنه كان حريصاً على وظيفته في حين لم يكن الرصافي كذلك، فقد هاجم الانكليز والظالمين معهم بقصائده الصريحة فيهم وعد ذلك هجاؤه للملك فيصل وللوزراء. وهذا ما يميزه عن حافظ الذي توقف ثمانية عشر عاماً عن هجاء المستعمرين والظالمين قضاها في دار الكتب، مما قدح في مواقفه المعروفة وأساء إليها.

أما ثقافة الشاعرين فمن المعروف أن حافظاً ذو ثقافة محدودة. وهي لا تتجاوز معرفته بالأدب العربي القديم والمامه بالفرنسية من غير إتقان، وكان بعيداً عن علوم العربية. ولم يكن مهتماً بالفلسفة القديمة والحديثة. والرصافي يكاد يتفق مع حافظ في محدودية الثقافة التي لم تكن تتسع الا للدواوين الشعرية وضعف ثقافته الأجنبية. بيد أن الرصافي كان ينهل من علوم شيخه محمود شكري الآلوسي الذي رافقه لأكثر من اثني عشر سنة. كما درس على غيره الفقه والمنطق وعلوما أخرى. مما كانت حصيلته مؤلفاته الكثيرة في الأدب واللغة والخطابة والتاريخ والسياسة والدين والاجتماع والسيرة. وقد انعكس ذلك في شعره بما تضمنه من حكم وأمثال.

ولا نقدم حافظاً في هذا المجال فقد اتصل بالشيخ المصلح محمد عبده وتأثر بعقله وآرائه، مما كان له الأثر في شعره أيضاً. مما يعني أن شاعرية الشاعرين كانت متأثرة بعناصر الجنس والبيئة والثقافة. وقد دعا كل منهما إلى وحدة الأمة العربية ومقاومة المحتل ومقارعة الظلم واستمدا من تاريخ الأمة العربية وتراثها ما أغناهما على بناء قصيدتيهما وأثرى مضامينها.

ولعل الميزة المهمة التي تحدد شعريهما هي البؤس والفقر والحزن، لكونها المنطلق والمحدد لمضامينهما. وفي هذا يقول شوقي ضيف عن شعر حافظ: «إن كنت تريد تصوير شكواه وحزنه وبؤسه وفقره، فقيثارة حافظ تصلح محل هذه الألحان الشجية، وإن كنت تريد ما يضطرب في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلوب زعمائه ومصلحيه من دعوات عقلية وروحية وسياسية ووطنية فالقيثارة نفسها تتفق عليها هذه الأنغام، وكأنها تعتصرها اعتصاراً".

فالشاعر يعبر عن فكره ونضاله السياسي والاجتماعي ووعيه الفكري وبما يجد جهاد الأمة وآمالها السياسية والاجتماعية وبما يؤكد نضالها ضد الاستعمار والحكام. وهو في هذا يختط طريقاً يكاد أن يكون وسيلة عند الرصافي الذي يتفوق فيه على حافظ. لأن الرصافي قد مال بشعره وبقوة نحو طموحات أبناء جلدته وجد ما في نفوسهم من آمال عريضة وتطلعات بعيدة بقوة وصدق يفوقان ما ورد في شعر حافظ.

فحافظ قد توقف لثماني عشرة سنة عن قول الشعر المناهض للاستعمار بينما آثر الرصافي مغادرة مجلس النواب، احتجاجاً على عدم جدواه وتخاذل أعضائه، مما كان سبباً لأن يرميهم بشواظ قصائده.

وهذا لا يعني أن حافظاً كان صامتاً عما يحيط ببلده. فحين اتفقت فرنسا وانكلترا على احتلال مصر، غضب حافظ على المصريين لسكوتهم على تلك الاتفاقية، وقال:-

وما أنت يا مصر دار الأديب ... ولا أنت بالبلد الطيب
أيعجبني منك يوم الوفاق ... سكوت الجماد ولعب الصبي
يقولون في الشيء خير لنا ... وللشيء شر من الأجنبي

فهو يحتج بطريقة ساخرة على الذين أساءوا إلى وطنه وخذلوا أبناء جلدتهم. وهذا الأسلوب التهكمي والساخر يتجسد بصورة أوضح في شعر الرصافي الذي يتهكم بالسياسيين العراقيين البعيدين عن المسؤولية؛ يقول:

يا قوم لا تتكلموا ... إن الكلام محرّمُ
ناموا ولا تستيقظوا ... ما فاز إلا النوّمُ
وتأخروا عن كل ما ... يقضي بأن تتقدموا
ودعوا التفهم جانبا ... فالخير ألا تفهموا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتشبثوا في جهلكم فالشر أن تتعلموا

يبدو الشاعر الرصافي أكثر تأثراً وانفعالاً من حافظ. ولعل السبب في هذا يعود إلى طبيعة الرصافي التي لا تعرف المهادنة واللين في مواقفه السياسية. وقد شن الرصافي حرباً على الإنكليز والحكام والوزراء ومنه قوله:

لنا ملك وليس له رعايا وأوطان وليس لها حدود
وأجناس وليس لهم سلاح ومملكة وليس لها نقود
وكم عند الحكومة من رجال تراهم سادة وهم العبيد
كلاب للأجانب إنهم ولكن على أبناء جلدتهم أسود
وليس الإنكليز بمنقذينا وإن كتبت لنا منهم عهود

وهذا المعنى يتردد عند حافظ الذي يقول في قصيدته عن (دنشواي):

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا
حفظوا جيشكم وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق بين تلك الربى فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأصيادا

ولا غبار على أن الشاعرين يكنان كل الحب لوطنيهما والإخلاص لهما والصدق تجاههما، يقول حافظ:

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبني قواعد المجد وحدي

فهو يتغنى بأمجاد وطنه ويعتز بأهله، وفي هذه القصيدة التي يتفوق فيها على غيره بالصدق الفني والشعوري وفي عمق التجربة أيضاً. وفيما يبدو امتلاكه ناصية فنه باقتدار، كما اتضحت فيها شخصيته بوضوح شديد، إذ يقول على لسان وطنه:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا تاج العلا في مفرق الشرق ... ودراته فرائد عقدي
أي شيء في الغرب قد بهر الناس ... جمالاً ولم يكن منه عندي
فترابي تبر ونهري فرات ... وسمائي مصقولة كالفرند
أنا إن قدر الإلهي ... لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي
أنني حرة كسرت قيودي ... رغم رقبى العدا وقطعت قدي

والرصافي ليس أقل حدة من حافظ ولكن أداته الفنية تقصر عنه فهو يقول في حبه لوطنه في قصيدة (الفلوجة) عندما ثار الضباط الأحرار عام ١٩٤١:

وطن عشت فيه غير سعيد ... عيشة مرّ يأبى على الدهر عوده
أتمنى له السعادة لكن ... ليس لي فيه ناقة منتوجه
أخصب الله أرضه ولو أني ... لست أرعى رياضه ومروجه
كل يوم أراه بعره. أتمنى ... جاعلاً ذكر عزه أهزوجه

وعلى العموم فهذا النمط من القصائد صار ظاهرة ملحوظة ليس عند الشاعرين فحسب وانما هو معاد ومكرر عند الشعراء في هذه المرحلة عموماً. فهم يتغنون بالحرية وينشدون أناشيد الوطنية ويدفعهم إلى ذلك عواطف دينية متأججة ومشاعر قومية صادقة.

مع أن العاطفة الدينية تتفوق على العاطفة القومية إلا أنهما يتجمعان في الغالب في بوتقة واحدة أساسها الشعر السياسي. ولقد كثرت معاني هذا الشعر كثرة مفرطة، حتى صار من الصعب أن تفصل أدواته هذا الشعر عن بعضها البعض. إذ ارتبط التحريض على الاحتلال الأجنبي بالهجوم على الحكام والمسؤولين كما ارتبط ذلك بالكلام على الحرية والحث على الوحدة العربية والاشتراكية وحب الوطن والحث على الوحدة.

وسيوه ذلك بأسلوب تهكمي مرة وحاد مرة أخرى. وكتب بلغة قوية فخمة في معاني التحريض، كما كتب بلغة رقيقة وسهلة في معاني التأسي على الوطن والبكاء على حقوق الإنسان.

وارتبطت معاني الموضوعات السياسية بمعاني الموضوعات الاجتماعية مثلما اتصلت المعاني الشعبية بالمعاني الدينية، حتى صار من الصعب أن نحلل أسبابها عند الأخرى. وهي كلها كانت رد فعل على غزو الغرب لديار العرب.

وهذه المعاني تتضح في شعر الرصافي أكثر من حافظ ومن غيره لأسباب عدة منها: ١- طبيعته الثائرة... ٢- وتأثره بمجموعة من الكتاب الأتراك وفي مقدمتهم توفيق فكرت الذي ترجم له الرصافي نشيداً وطنياً مشهوراً ٣- وتأثره بما يحدث في مصر وغيرها من أحداث وثورات ٤- ولظروفه المادية الصعبة.

وقد شكلت هذه الأسباب مجتمعة دافعاً للشاعر يحرضه على الاستزادة فيه. ولذلك صار شعره وثيقة سياسية ومادة ثرة للتاريخ العراق الحديث. من غير أن يفقد شخصيته، بل نراها واضحة بشدة وعواطفه تتدفق بالحرارة وبالحب الدافق، وتجربته لا يغادرها الصدق. ومن هنا كان مفضلاً على غيره. وكما نلمس ذلك عند الناقد مصطفى عبد اللطيف الذي يفضله على غيره ويجعله في القمة لكونه يعد مثالاً للروح الحرية الذي يفضله على غيره ويجعله في القمة لكونه يعد مثالاً للروح القومي المتسور في مقارعة الغاصب والاستبداد ومناصرة الحركات التحررية.

ومع الناصية الشكلية فإن شعره كان موحد الموضوع، بديباجة سهلة، لا تكلف فيها ولا معاظلة.

في حين كان حافظ إبراهيم يغاور ويبادر في بعض قصائده، كموقفه من كرومر وتهنئته ملكة انكلترا باعتلاء العرش، وهجاؤه الحكام وإعانته لهم بتهاونهم بحق الوطن. كما أنه مجد موقف المرأة الوطني في قوله:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خرج الغواني يحتجبن ورصدت أرقب مخبرهن
فإذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهن
وإذا جيش مقبل والخيل مطلقة الأعنة
وإذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهن
فليهنأ الجيش الغنو ر بنصره وبكسرهن

وفي مقابل ذلك فقد مدح الوطنيين من أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول ودعا إلى وحدة الصف الوطني، وإلى يقظة الشباب

وهناك اتجاه آخر يجمع بين الشاعرين وهو شعر الرثاء. وهو يدل على صدق التجربة والإحساس الحاد بالألم وفي جودة التعبير ورودة التصوير عند كلا الشاعرين. فقد رثى حافظ مصطفى كامل بقوله:

تصوب ألفا حول نعشك خشع يمشون تحت لوائك السيار
ضطوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطار

وكذا فعل الرصافي في رثائه رجالات الفكر الوطنيين وأدباء الأمة وشعرائها وقد تميز رثاؤه بالصدق الشعوري والحس الإنساني المتدفق. ويكفيه أنه في ديوانه بابا خاصا للرثاء، فيه عشرات القصائد التي تشهد له بالصدق الفني والشعوري. وهذا مرثيته لجبران خليل جبران التي حفيها نحو الأسلوب الرمزي الخفيف.

أما الشعر الاجتماعي عند الشاعرين فربما يفوق نظيره السياسي في تعدد معانيه وحرارة عاطفته وصدق مشاعره وعمق تجاربه. وهو يعكس ما يمتلكانه من قوة في رصد حركة المجتمع والدقة في الملاحظة.

والحق يدعونا إلى القول إن الشعراء العراقيين كانوا أكثر رصداً وأشد حرارة من الشعراء المصريين ومن غيرهم في رصد تلك المظاهر والتعبير عنها، لا سيما ما يتعلق بمظاهر الفقر والحرمان وما يتصل بالمرأة وحريتها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي ذلك يقول أنيس المقدسي: «ولو راجعت نشاط الرواد أمثال الزهاوي والرصافي وشبيب والدجيلي وأضرابهم والهاشمي وعلي الشرقي وصالح بحر العلوم والجواهري والسماوي ونظرائهم، لشعرت فيها بروح ناقمة على الأوضاع الحاضرة، شديد الحملة على ترف الأغنياء وسوء تصرفهم إزاء الطبقات المحرومة. وقلما تجد هذه النغمة الثائرة والحرارة الغائرة في دواوين شعراء مصر كشوقي وحافظ ومحرم... التي يغلب فيها الحض على الإصلاح ومناصرة الجمعيات الخيرية وملاطفة الباشوات»[1].

ولذلك فشعر حافظ لا يصل في مستواه إلى ما وصل إليه شعر الرصافي في توليد المعاني الجديدة وفي دقة الرصد وصدق الشعور. ومن أشد الظواهر الاجتماعية بروزاً في شعر الرصافي، وصفه الفقراء. وقصائده فيها عبارة عن لوحات اجتماعية واقعية، وصور إنسانية صادقة تنبض بالحركة والحياة. وهي تستمد معانيها من معاناة الشاعر نفسه قبل معاناة غيره. إذ قال عنه الناقد بدوي طبانة (الرصافي ضمير صور آلام الفقراء). وقصائده عن الفقراء كثيرة جداً ولعل أشهرها قصائده: (أم اليتيم) و (اليتيم والعيد) و (الفقر والسقام) و (الأرملة المرضعة) و (معترك الحياة).

وقصيدته (الأرملة المرضعة) تقف في مقدمة هذه القصائد. فهو يصف هذه المرأة وصفاً دقيقاً يشير فيها إلى شبابها المحرقة وأرملها الجافية ودموعها الغزيرة واصفرار وجهها، وما سببه لها الدهر من جوع وآلام وهموم وشقاء. ويصف يتيمتها التي لم تغادر سن الرضاعة. وهو في هذا يحاول إثارة المشاعر والعواطف. يقول:

تمشي وقد أثقل الأملاق مشاها ... لفيتها ليتني ما كنت ألقاها
والدمع تذرفه في الخد عيناها ... أثوابها رثة والرجل حافية
واصفر كالورس من جوع محياها ... بكت من الفقر فاحمرّت مدامعها
فالدهر من بعده بالفقر أشقاها ... مات الذي كان يحميها ويسعدها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموتُ أفجعها والفقرُ أوجعها ... والهمُ أنحلها والغمُ أضناها
فمنظرُ الحزنِ مقرونٌ بمنظرها ... والبؤسُ مرآةٌ مقرونٌ بمرآها

وهكذا تمضي هذه القصيدة الطويلة، بحركة دائبة تنظمها موسيقا شجية وصاحبها ينتزع صورها من واقع حياتنا البائسة التي تحتشد بالصور لبائسة. أما حافظ فلا يوجد له في هذا الباب إلا أبيات متفرقة. مثل ندائه للأغنياء

أيها الرافلون في حلل الوشي ... يجرون للذيول افتخارا
إن فوق الثراء قوماً جياعاً ... يتوارون ذلةً وانكسارا

وهو يعرض لصور استغلال الأغنياء للفقراء، ويحتج على غلاء الأسعار. يقول:

أيها المصلحون ضاق بنا العيش ... ولم تحسنوا عليه القياما
عثرت السلعة الذليلة حتى ... باتت مسح الذباب طباً جساما
وغدا القوت في يد الناس كالليا ... قوت حتى نوى الفقير الصياما
إن أصاب الرغيف من بعد كدي ... صاح من لي بأن أصيب الأداما

وتعرض الشاعران للأخلاق ودورها في بناء الأمة. منوهين بدور المربين في بناء الأخلاق. يقول الرصافي:

إذا سقيت بماء المكرمات ... على ساق الفضيلة مثمراً
هي الأخلاق تنبت كالنبات ... تقوم إذا تعهدها المربي

ويقول حافظ في هذا الصدد:-

طرب الغريب بأوبة وتلاقي ... أني لتطربني الخلال كريمة
بين الشمائل هزة المشتاق. ... وتهزني ذكرى المروءة والندى

ولم ينسيا الطفل ومكانته في المجتمع. ولكنه يربط عندهما بالفقر والبؤس والشقاء. يقول الرصافي:-

ومن المؤلم أن ترى عندنا الأطفال (م) تفنى لأنهم فقراء
لا غطاء من تحتهم لا غطاء ... لا وطاء من تحتهم لا غطاء
ليس موت الأطفال هيناً فقد ... ينبغ منهم نوابغ أذكياء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي الفضل نفسه يقول حافظ :-

أنقذوا الطفل إنما في شقوة الطفل
إن يعش يأتِ ولم يطوه البؤس
ربّ بؤسٍ يخبث النفس حتى
أنقذوه فربما كان فيه

شقاء لنا على كل حال
يعيش نكبة على الأجيال
يطرح المرء في مهاوي الضلال
مصلح أو مغامر لا يبالي

أما المرأة ومشكلاتها ووظيفتها في المجتمع فقد شغلت شعراء هذا التيار كلهم. بحيث صارت من أخطر الظواهر الاجتماعية. ففي مصر كانت هناك دعوات للنهوض بواقع المرأة من دعاة ومصلحين تبنوا قضية المرأة. ولكن هذه الدعوة لم تجد أرضاً خصبة في العراق. ولذلك لم يلق حافظ ما لقيه الرصافي والزهاوي من تصدٍ لهذا الموقف. كما أن حافظاً نفسه لم يندفع في دعوته اندفاعهما، شأنه شأن كل مواقفه لذلك جاءت دعوته توفيقية. يقول حافظ :-

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا
بين الرجال يجلن في الأسواق
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا
في الحجب والتضييق والإرهاق
فتوسطوا في الحالتين وانصفوا
فالشر في التضييق والإرهاق.

بينما دعا الرصافي إلى رفع الظلم الذي حلّ بالمرأة ونددّ بالعادات والتقاليد التي أذاقتها ألوان العسف وصنوف العذاب. يقول :

ولو أنهم أبقوا لهن كرامة
لكانوا بما أبقوا من الكرماء
ألم ترهم أمسوا عبيداً لأنهم
على الذل شبوا في حجور إماء
وهان عليهم حين هانت نساؤهم
تحمل جور الساسة الغرباء
أيسعد مسياكم بغير نسائكم
وهل سعدت أرض بغير سماء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا لا يختلف عن قول حافظ الذي وصف به المرأة بقوله:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

ولكن هذا لا يصل إلى جرأة أفكار الرصافي الذي طلب العلم للمرأة كما هو للرجل، وطلب العمل لها أيضاً، كما عالج بؤسها وشقاءها وألمها الناتج عن الفقر، وطلب مساواتها بالرجل رابطاً نهضة الشرق بنهضة المرأة، والشرق ليس بناهض إلا إذا أوفى النساء من الرجال وقربا

وعالج الرصافي مشكلة الطلاق وهاجم رجال الدين الذين يؤولون الآيات القرآنية بعيداً عن الإنصاف بعدة قصائد منها (مطلقة)، وعلى الرغم من قوة عرض الرصافي لمشاكل المرأة يبقى الشاعر جميل صدقي الزهاوي صاحب الصوت المدوي الذي أشعل ناراً حامية ضد دعاة الحجاب، داعياً إلى إسقاطه وتمزيقه، تحقيقاً لانقلاب اجتماعي يجعل المرأة في نظره عضواً فاعلاً في المجتمع لا يختلف عن الرجل، وقد مثل ذلك انقلاباً في مفاهيم لاسيما أن العصر الذي انطلقت فيه هذه الأحكام لا يسمح بمثل تلك الدعوات أن تمر بسهولة ويسر

يقول الزهاوي:

اسفري فالحجاب يا ابنة فهر هو دار في ارتجاع وضيم

كل شيء إلى التجدد ماض فلماذا يقر هذا القديم

اسفري فالسفور للناس صبح زاهر والحجاب ليل بهيم

اسفري فالسفور فيه صلاح للفريقين ثم نفع عميم

زعموا أن في السفور انثلاما كذبوا فالسفور طهر سليم

لا يقي عفة الفتاة حجاب بل يقيها تثقيفها والعلوم

وفي هذا المقطع يقول:

مزقي يا ابنة العراق الحجابا اسفري فالحياة تبغي انقلابا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مزقيه واحرقيه بلا ريبِ فقد كان حارساً كذابا

وقال أيضاً:

قال هل في السفور نفع يرجى قلت خيرٌ من الحجاب السفور
إنما في الحجاب شلٌّ لشيء وضفاء وفي السفور ظهور
كيف يسمو إلى الحضارة شعب منه نصف عن نصفه مستور

مما يدل على قوة وصلابة موقف الشاعر ودفاعه عن رأيه الذي تمثل في قصائد عدة وليس في قصيدة واحدة.

وأخيراً نقول لقد كانت لشعراء هذه المراحل قضايا معينة قد انطلقوا منها كلاً حسب قامته ودرجة شعريته. وذابت شخصية الشاعر في ما حوله من قضايا، ولكنه الشعر مع ذلك لم يقف عند هذه الحدود فقد امتد شعر الصافي إلى الغزل والوصف وعالج الكثير من القضايا الكونية والفلسفية ونظم شعراً تاريخياً وآخر في تراجم الأشخاص، جميعها لم يكد يترك غرضاً من الأغراض المعروفة. ومع ذلك لم يصل صدقه الشعوري والفني ما وصل إليه في رثائه وشعره السياسي والاجتماعي. إذ لا نحس في غزله صدق العاطفة وأغلب صوره عادية ومطروقة ومادية ومحسوسة. وفي وصفه للطبيعة لا ينقل لنا الأثر النفسي الذي تحدثه مشاعرنا، لأنه انتزع أوصافه مما تقع عليه الحواس فحسب.

وقفنا في ترجمة الأشخاص ولاسيما قصيدته الطويلة (أبو بكر الرازي) التي وصف فيها حياة الرازي وأعماله وفلسفته ومآله المحزن، تنقلي من باب الأسيقية في الشعر العربي وحبه.

وفي شعره التاريخي حاول أن يكشف عن عظمة أمته وأمجادها، لكي يربط بين ماضي أمته بحاضرها المتخلف إيقاظاً للشاعر. ومن أفضل ما نظم في هذا المجال قصيدة (قصر الحمراء) التي تتضح فيها عواطفه القومية ومشاعره الصادقة.

وأخيراً نذكر (القصة الشعرية) التي يعد الصافي من أوائل الذين أسهموا

-١٤-

في معالجتها في ميدان الشعر. إذ تمتاز قصصه الشعرية بصدق العاطفة وبعد الخيال ووضوح التجربة. نظم قصصاً تاريخية عن حياة عمر وعلي وغيرهما من عظماء الإسلام بهدف زرع الرغبة في الكفاح لدى الأجيال الجديدة.

وهذا الشعر الذي استمد مادته من تاريخ العرب والإسلام يوازي شعره السياسي والاجتماعي ولا يقل حرارة وعواطف عنه. ومع ذلك كله يبقى شعرهم ذا صبغة عقلية تقود إلى محدودية قدراتهم الفنية وتقافرهم لعاطفة. لأنهم لم يتغلغوا بواطن النفوس ولم يتأملوا الطبيعة جيداً كما فعل الجيل الذي تلاهم، ولم يعرف أكثرهم معنى الوحدة العضوية أو الوحدة الموضوعية.

الشاعر عبد الحسن الكاظمي

من الشعراء العراقيين البارزين في عصر بدايات النهضة الحديثة، هجر وطنه العراق وحلّ في مصر، فأفادته إقامته في مصر، إذ سنحت له أن يطلع على الحركة الفكرية والعلمية هناك. وعرف له أدباء النيل منزلته فذاع صيته. ولعل أهم ميزة في شعره قصائده الاستهلالية التي يحث فيها العرب على مقارعة المستعمر.

وقد عرف عنه جودة شعره ومتانته وحسن سبكه ورصانة قافيته، مع طول نفس وفضة بحر. ساعده في ذلك حفظه لأكثر من اثني عشر ألف بيت من الشعر القديم.

وكان قد التقى السيد جمال الدين الأفغاني عندما قدم إلى العراق منفياً من إيران. فأخذ عنه بعض مبادئه وعلومه. وما لبث الأفغاني أن نفي من بغداد فأخذ الكاظمي يجاهر بنواقض الحكومة، وكاد أن يلحقه الأذى لولا أن لاذ بالوكالة الإيرانية في بغداد، ثم غادر الكاظمي إلى البصرة متخفياً ومنها لإيران وبعض إمارات الخليج فالهند ليحط عصا التسيار في مصر، على أمل أن يعود إلى بغداد ولكنه يمرض مرضاً عضالاً أقعده عن مبارحة مصر وذهب ببصره فمات ويدفن بمصر.

وقد عرف عن الشيخ الكاظمي أنه ذو إباء شديد وبداهة الخاطر، إذ كان يرتجل في مجلس واحد القصيدة التي تبلغ المائة أو المائتي بيت من غير تكلف، وينفس فيه من روح البداوة الشيء الكثير. يقول:

مَنْ رامَ إدراكَ المرا ... مِ سعى بلا مللٍ وجدّا

حُرٌّ يكن للذلِ عبدا ... من لم يعزّ بوطنٍ

ى بالنقائبِ والمذى ... سيروا إلى الوطنِ الموقّـ

وجمالهِ في الكونِ بدّا ... سيروا إلى من سارَ ذكـ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يا هذا وطنٌ أعاد ... ذ الفضلَ في الدنيا وأبدى
يا هذا وطنٌ نفتـ ... ـدى باسمه أبداً ويُحدى
وطن تقادم ذكره ... عند المكارم واستجدّا

* *

سيروا نذبُّ عن الحما ... ونردُّ عنه المستبدّا
نحمي حمى أوطاننا ... ونصونها غوراً ونجدا
ونردُّ عنها من عدا ... ظلماً عليها أو تعدّى
سيروا نؤلف شملها ... ونُعيدها عقداً فعقدا
إن كان حربٌ فابشروا ... لي في بطون الطير لحدا
أو كان سلمٌ فاجعلوا ... ذاك الثرى عيناً وخدّا

محمد سعيد الطبوني

ولد بالنجف الأشرف عام ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م، ودرس العلوم الدينية حتى عُدّ من العلماء الأعلام في النجف. ومن ثم التدريس في العلوم الدينية. وقد اجتمعت فيه مؤهلات ومواهب أهلّته لرقيه ونبوغه. فقد كان حاد الفكر سريع النظم، حاضر البديهة، ومتوقد الذهن. وقد جمع إلى براعة الأسلوب دقة المعاني. وبهذا فقد جمع بين الأديب والفقيه الجليل والعالم الجهبذ.

ومما يؤثر عنه جهاده ضد الانكليز. إذ أعلن الجهاد ضد الاستعمار البريطاني في العام ١٩١٤ وخرج هو نفسه رغم كبر سنه، والتحق به الجموع المحتشدة من المؤمنين ومعظم عشائر الجنوب العراقي والأكراد، وسارهم إلى منطقة الشعيبة. إلا أن الشعيبة التي يتواجد فيها الإنجليز، وقاتلهم في معركة الشعيبة. إلا أن تفوق السلاح الانجليزي أجبرهم على الانسحاب بعد أن قدموا تضحيات جسيمة من الشهداء. وبعد أشهر اتصل به القادة الأحرار وطلبوا

منه التعاون معهم للجهاد. فكان أن خاض مع الأتراك والعشائر معركة أخرى ضد البريطانيين، وكان النصر حليفهم هذه المرة، إذ استطاعوا من أسر جميع أفراد القوة البريطانية البالغ (١٤٣) رجل. وأخذاً غنيمة الموت في عام ١٢٢٢هـ بمدينة الناصرية عند عودته من المعركة. ١٩١٥م

يعد نتاجه الشعري صدىً لدوره التجديدي في الشعر العراقي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. غلب على نتاجه الموشحات التي لفتت إليه أنظار الدارسين، مع أن له قدرة فائقة على نظم الشعر. ولا سيما دقة أوصافه وجودة السبك وحسن الاختيار في الصورة الشعرية فضلاً عن جمال الأسلوب وجزالة التراكيب. بيد أن اهتمامه بعلوم الفقه وأصول الدين وعلومه جعله يترك الشعر قبل موته بمدة طويلة. يقول:

بلادك نجد والمحب عراقي ... فغير التمني لا يكون تلاقي

ولو أنه طيفاً زار طرفي ساهداً ... لكنت رجوت القرب بعد فراق

بلى قد أرى تلك المغاني تعلةً ... فأحسب أني زائر وملاقي

أرى الدهر يأبى لي تألف شملنا ... كأني أعاديه فرام شقاقي

هي الشمس في أفق السماء مقرها ... فكيف براقٍ نحوها ببراق

ألا هل أراني واجداً ريح وصلهم ... وإلا عدموني صحبتي ورفاقي

محمد مهدي الجواهري (١٨٩٩-١٩٩٧)

يعد الجواهري من أفضل شعراء العربية في العصر الحديث. تميزت قصائده بالتزام عمود الشعر التقليدي. وهذا الالتزام محكوم بثقافة الشاعر التي استقاها من تربيته في بيئة النجف الأشرف، ودراسته للعلوم العربية وحفظه الكثير من الشعر القديم والحديث، ولاسيما شعر المتنبي. اشتغل بالتعليم والصحافة فأصدر جريدة الفرات والانقلاب وأبي العلاء.

يتصف شعره بالنسيج المتين والواضح وتتقاسم موضوعاته المناسبات السياسية والتجارب الشخصية. ويبدو عليها الثورة على التقاليد وعلى الأوضاع السياسية والاجتماعية القاسية.

وتعود تسمية الجواهري إلى كتاب «جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام» الذي ألفه أحد أجداد الأسرة الذي يدعى محمد حسن. ومن هنا لقب بالجواهري. وقد اعتنى به والده وحرص على إرساله إلى المدرسة فدرس أصول النحو والصرف والبلاغة والفقه. ويذكر أنه اشترك في ثورة العشرين ضد السلطات البريطانية، واشترك في تأسيس الحزب الوطني في عام ١٩٤٦. وانتخب عضواً في مجلس النواب العراقي واستقال بعد عام واحد، لمعارضته معاهدة بورتسموث، التي كان شقيقه جعفر أحد ضحاياها فرثاه بقصيدة (أخي جعفر)، وفي عام ١٩٤٩ حضر في مؤتمر أنصار السلام العالمي الذي أقيم في بولندا، وعلى أساسه أسس مجلس السلم العالمي وأختير عضواً فيه. وفي أثناء ذلك تعرض للاعتقال أكثر من مرة.

وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي كان من أشد المتحمسين لها أطلق عليه شاعر الجمهورية وهو أول نقيب للصحفيين في تاريخ العراق. ولكن الأمور ما لبثت أن تغيرت فسافر إلى لبنان ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا طلباً للجو السياسي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ سحبت منه الجنسية العراقية لرفضه الانقلاب بقيادة عبدالسلام عارف، ثم عاد إلى العراق بعد عام ١٩٦٨، فاعيدت له الجنسية العراقية وفي أواخر ١٩٨٠ غادر العراق الى دمشق، وفي شهر أيار الماضي سحبت منه الجنسية العراقية مجدداً، وليتوفى فيها عام ١٩٩٧.

وقد خلّف ديواناً ضخماً جلّه في القصائد العمودية ولعل أهمها: يا دجلة الخير، وفداء لمثواك، وتنومة الجياع، وفداء لقبرك. يقول في الأولى وهي في رثاء الحسين (بن علي ع):

فداءً لمثواك من مضجع ... تنوّر بالأبلج الأروع
ياعبق من نفحات الجنان ... روحاً ومن مسكها أضوع

كأن يداً من وراء الضريح ... حمراء مبتورة الاصبع
تمدّ إلى عالم باخنوع ... والضيم ذي شرقٍ متّرع
تخبط في غابة أطبقت ... علىٰ مذنب منه أو مسبع

أما أجمل قصائده التي قالها في الحنين إلى الوطن والاشتياق له فهي قصيدة (يا دجلة الخير) التي قالها وهو في حالة شوق إلى وطنه.

يا دجلة الخير يا أم البساتين ... يا دجلة الخير يا أم البساتين
حييتُ سفحك عن بعد فحييني ... لوذ الحمائم بين الماء والطين
حييتُ سفحك ظمآناً ألوذ به ... ...
إني وردت عيون الماء صافية ... نبعاً فنبعاً فما كانت لترويني
وأنت يا قارباً تلوي الرياح به ... لي النسائم أطراف الأفانين